مع ميخائيل نعيمه
فى (زاد المعاد)

للأستاذ مناور عويس

« غداً ستغمرنا لجة العدم بأحزابنا وأوصابنا ، بجائنا ومتخومنا ، بفقيرنا وموسرنا ، بوجيهنا وحقيرنا ، وستقوض الأيام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية فلا يبقى إلا الخالد والجميل والحق فينا ... ومن ذا الذى يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا إن لم يكن ابن الأدب والفن ؟ ! »

« نعيمه »

لك الله يا ميخائيل كم لك على من يد بيضاء !

فى الثالث والعشرين من حزيران سنة ١٩٤٧ فجعنى الموت بابن أخى « جمال نورى عويس » فرحت ألتمس العزاء فى الشعر العربى القديم منه والحديث — فقد كان الأدب وما زال هو الملجأ والملاذ الذى أهرب إليه فى الأزمات والملمات — فماذا وجدت؟ وجدت شعراً مفجعاً مؤثراً غير أنه فردى لا يصلح لكل إنسان ولا يسمو به فوق المكان والزمان ، اللهم إلا رائعة رهين المحبسين الخالدة وهل أعنى سوى « غير مجد » ؟

وإذا بيدى تمتد إلى « زاد المعاد » فأفتحه وإذا بى أقع على هذه الآيات فى الموت والحياة :

« وعندى أن من ينوح على ميت إنما ينوح على الله ، ومتى كان الله فى حاجة إلى نوحكم ونوحى ؟ أو ليس الله حياً من الأزل وإلى الأبد ؟ إذن كل ما ينبثق منه يحيا بحياته مهما تبدلت أحواله وكيفما تغيرت أشكاله ، والذى يقول إن الأموات بادوا واندثروا إنما يقول إن الله الذى كان وما يزال حياً فيهم قد باد واندثر .

والذى يؤمن بأن الموت رب الحياة أحرى به أن يعبد الموت ويكفر بالحياة ، والذى يبصر فى الموت نهاية الحياة إنما هو ضرير لا يبصر الحياة ولا الموت ! ...

فما بالنا ونحن الذين حصرنا الزمان بين المهد واللحد نقبل على المهد ونهرب من اللحد ، وما المهد إلا طريق اللحد وبابه ؟ !

ما بالنا نلثم اليد التى كتبت الفاتحة ونعض اليد التى خطت الخاتمة ، واليد التى خطت الخاتمة هى عين اليد التى كتبت الفاتحة ؟ إن تكن خاتمة العمر شراً فالفاتحة التى تؤدى إليها شر مثلها . وإذ ذاك أحرى بنا أن ننوح على من يولد قبل أن ننوح على من يموت .

أترونى أكلكم بالأحاجى ؟ وبماذا عسانى أكلكم إن لم يكن بالأحاجى ؟ وتقاليد الناس قد جعلت من وجودهم سلسلة كل حلقه فيها أحجية ؟ أجل . إنها لأحجية أن تنفصل بين الحياة والموت وهما متصلان اتصال النهار بالليل ، واليقظة بالمنام ، والزهرة بالثمرة ، وقطرة الطل بقطعة الجليد . إنها لأحجية أن تميت نبات الأرض وطيرها وحيوانها لتحولها لحماً فى جسدك ودماً وعظماً وأن تدعو موتها حياة وعندما تحول الأرض جسدك نباتاً وطيراً وحيواناً أن تدعو ذلك موتاً لا حياة ! إنها لأحجية أن تأكل الموت فى كل ما تأكل وتشربه فى كل ما تشرب وتلبسه فى كل ما تلبس . وأن تنام وتقوم وإياه . وأن تشتهيه فى كل شهوة من شهواتك . وأن تباركه فى كل ذلك باسم الحياة . ومن ثم أن تلعنه عندما يأكلك ويشربك ويلبسك ويشتهيك ! ... الخ

قرأت هذه الآيات التى تزخر بالإنسانية والفلسفة والشعر والمنطق فإذا بى أحس بدبيب التعزية يسرى فى نفسى وإذا بالثورة التى كانت تعتلج فى روحى قد استحالت هدوءاً وسكينة واستسلاماً فخرجت بالنتيجة الآتية :

إن الأدباء صنفان : صنف يرهقك بآرائه وآراء غيره الجافة التى تعتمد على البحث والاستقراء دون أن يعطيك شيئاً من روحه ووجدانه ، وصنف يقدم لك روحه ووجدانه طعاماً شهياً بأسلوب سهل واضح لا غموض ولا أنانية فيه . ومن الصنف الثانى شاعر الإنسانية الشاملة ، شاعر المحبة ، شاعر الحياة وكاتبها الكبير الأستاذ ميخائيل نعيمه ! ..

فأنت تقرأ حين تقرأه فلسفة عميقة ومنطقاً سليماً وأدباً رائعاً دون أن تحس بإرهاق فى عقلك أو توتر فى أعصابك ، فأنت معه فى بستان حافل بكل ما يعجب ويطرب ويلذ ...

فبينما ترى الصنف الأول من الكتاب يمتح من معين غيره ترى الصنف الثانى يستقى ويسقى من نفسه وروحه ، ومن يستوحِ نفسه يستوح أرواح الناس جميعاً ؛ الأول يكتب فى كل شىء

ولا يكتب فى شىء؛ الأول بحاثة والثانى صاحب رسالة ، الأول تقرأه مرة وقل أن تحس بحاجة للرجوع إليه ، والثانى لا تستغنى عنه لأنه منك وإليك ! ... الأول أنانى محدود الآفاق ، والثانى واسع شامل عميق كالحياة ، الأول يشبه البركة الراكدة ، والثانى يشبه الأوقيانوس !

فالأديب الذى لا يكفكف عبرة ، ولا يكشف غمة ، ولا يحل عقدة هو أديب حظه من البقاء قليل ونصيبه من الخلود هزيل ..

قدّر لى أن أنشأ نشأة ريفية صميمة ، فقد تفتحت عيناى على تلك الجبال التى تغزل بها سليمان فى نشيده الخالد : « شعرك كقطيع الماعز الرابض على جبال جلعاد » هذه الجبال جبال جلعاد أو جبال عجلون — كما تدعى اليوم — هى مجلى هواى ومرتع صباى ... كنت أفارقها — مرغماً — العام والعامين — طالباً أو مسترزقاً — وأعود إليها مستروحاً مستجماً — لاغتسل من أدران المدنية واتطهر من أقذار المدنية ، ولقد كنت أشعر شعور الحاج أقبل على الأماكن المقدسة ، فن مشاعر غريبة مبهمة وأحاسيس غامضة من الحنين والشوق والحب والشعر والدين ، إلى عواطف متضاربة من الفرح والحزن ، والعبوس والابتسام .

كنت أقف إزاء هاتيك الجبال الأزلية ، التى شهدت فجر الخليقة وستشهد غروبها ، خاشعاً مبهوتاً ، وأهبط إلى تلك الأودية العميقة الرهيبة فأحس بحاجة ملحة إلى السجود والتعبد ، كما كنت أشعر بإشراق فى روحى وفرح وحشى فى قلبى لا يعرفه إلا ابن الطبيعة ، الذى ألف ولولة الرياح وهزيم الرعد وانفجار الصبح ولمع البروق ! ... ولطالما أحسست وأنا أسير بين تلك الجبال الحبيبة التى عرفت طفولتى وصباى وشهدت ملاعبى وهواى بالحاجة إلى نظم الشعر أو كتابة النثر فكانت تعجزنى الأداة وغلبة الإحساس الطاغى على التفكير والتركيز ، فتسيل عواطق من عينى ، وتستحيل الفكرة فى رأسى إلى نوع من الشرور والذهول ، ولست أدرى أكانت دموعى دموع الفرح بعد طول الفراق ، أم دموع الأسى على هاتيك الأيام والليالى التى بدّدتها فذهبت إلى غير رجعة ؟!

ظل ذلك شأنى إلى أن قرأت هذه الآيات من خطاب « نعيمه » إلى أبناء بلدته « بسكنتا » إثر عودته من أمريكا :

« يا أبناء بسكنتا يا لحى ويا دمى !

منذ عشرين عاماً أدرت وجهى إلى البحر وظهرى إلى صنين واليوم صنين أمامى والبحر ورائى . وأنا بين الاثنين كأنى فى عالم جديد وكأنى ولدت ولادة ثانية .

ما أنا بالنبى بضع العجائب ، غير أنى منذ عدت إليكم والعجائب تكتنفنى ، فكأننى فى عالم مسحور . أنظر إلى الجبال التى كنت أتسلقها فإذا بها تتسلقنى! وإلى الأودية التى كنت أهبط إليها وإذا بها تهبط إلى أعماقى ! وإلى البساتين والكروم والحقول التى كنت أمشى فيها وإذا بها تتمشى بين جنبات ضلوعى ، وكأن كل غرسة فيها غرست فى داخلى . وكأن كل يد تعمل فى تربتها تعمل فى تربة نفسى ! ...

أكاد لا ألمس حجراً إلا تفجرت منه سيول من الطهر والجمال ! أكاد لا أسمع زقزقة عصفور إلا سمعت فيها أجواقاً من الملائكة ترنم بصوت واحد « قدوس . قدوس . قدوس . ! »

أكاد لا أرفع بصرى إلى نجم إلا تدلت منه سلالم سحرية . هى سلالم المحبة التى تربط كل ما فى السماء بكل ما على الأرض ! ...

ومن ثم فكيفما انقلبت تجمهرت على ذكريات ما كان من حياتى قبل هجرتى . فهى تثب علىّ من جوانب الطرق ، وشقوق الصخور ، وخطرات النسيم ، وقطرات عيون بسكنتا الكثيرة »

فأى امتزاج فى الطبيعة هذا الامتزاج ؟! وأية صوفية ، وأية روحانية تطالعك من هذه الفقرات ؟!

إن الشعور الطاغى الذى كان « سديماً » فى صدرى قد جعله نعيمه شموساً وأقماراً وأرضاً ، والأفكار المشوشة ، والحنين المبهم والشوق المحرق ، قد حوله نعيمه بمقدرته الفنية إلى أدب رفيع وفن رائع !

إن ما كنت أحس بالرغبة للتعبير عنه ولا أستطيع إليه سبيلا بغير الصمت والخشوع والدموع ، قد عبر عنه نعيمه بأسلوب الملهمين وأصحاب الرسالات الروحية الخالدين!

فالكاتب الذى ينطق بلسانك ويشرح ما يكنه جنانك هو أديب وأى أديب ! ...

والأديب الذى يجد الناس فى أدبه بلسما لجراحهم ومتنفساً لخواطرهم ومعبراً عن أحاسيسهم ومشاعرهم هو أديب فيه نبوة وفى أدبه قدسية ! ...

يافا

منور عويس
مدرس الأدب العربى بكلية ترا سانطة